DEUİFD XLIII / 2016, ss. 305-330.

آليات استدعاء النص القرآني ودلالات توظيفه في شعر مفدي زكريا

يوسف العايب*

ملخص:

القارئ لشعر مفدي زكريا يشعر بوجود نصوص غائبة تتنوع في طبيعتها ومصدرها، يمتصها الشاعر فتنفتح نصوصه على إيحاءات دلالية متنوعة. والنص الديني متمثلا في القرآن الكريم واحد من أبرز تلك النصوص الغائبة التي نجد لها صدى قويا في مواضع كثيرة من شعر مفدي زكريا، وهو ما تهدف هذه الدراسة إلى تجليته والكشف عنه من خلال الاعتماد على تقنية التناص كمنهج مثلما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين.

كلمات مفتاحية: شعر، القرآن الكريم، التناص

MÜFDÎ ZEKERİYYÂ'NIN ŞİİRLERİNDE KUR'AN METNİNİN KULLANIM KEYFİYETİ VE MANALARI

ÖZ

Müfdî Zekeriyyâ'nın şiirlerini okuyan kişi, yapısı ve kaynakları itibariyle çeşitlilik arz eden bazı üstü örtülü metinlerin varlığını hisseder. Şair bu metinleri şiirine katar ve böylece şiirler çeşitli anlamları ilham edecek bir hale gelir. Kur'ân-ı Kerîm ile temsil edilen dini metinler, bu üstü örtülü metinlerin en belirgin olanlarından biridir. Bu dini metinlerin Müfdî Zekeriyyâ'nın şiirlerinde güçlü bir sadâya sahip olduğunu görmekteyiz. Bu makalenin amacı, bazı araştırmacıların kullandığı metinlerarasılık metodunu esas alarak bu metinleri açıklamaya çalışmaktır.

Anahtar kelimeler: Şiir, Kur'ân, Metinlerarasılık

---

* - الدكتور، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي –الجزائر

Makalenin Hakemlere Gönderiliş Tarihi : 09/05/2016
Makalenin Hakemlerden Geliş Tarihi : 05/06/2016

MECHANISM FOR EVOKING THE QURANIC TEXT AND ITS CONNOTATIONS IN MOUFDI ZAKARIA'S POEMS

ABSTRACT:
The reader of Moufdi Zakaria's poetry feels the existence of some implied texts, which vary in its nature and its sources, absorbed by the poet and reflected through different connotations. One of those implied texts,which is strongly present in Moufdi's poetry, is the Quran.
On the base of the intertextuality, this study aims to reveal the presence of Quran in Moufdi's Poetry.
Keywords: poetry, the Quran, the intertextuality

لكل أثر إبداعي أصول يستقى منها أو يستند إليها أو يوظفها فنيا، لأن الكلام – أي كلام- لا يبدأ من صمت وإنما يبدأ من كلام سابق. ويظل لهذا السابق حضوره الفاعل والقوي في الحاضر عن وعي أوعن غير وعي، أو يأخذ حضوره شرعية المشاركة في إنتاج المعنى والدلالة في وضوح أحيانا وفي خفاء أحيانا أخرى، فتمتزج الذاكرة العامة بالذاكرة الخاصة وتنصهر في بوتقة إبداع واحدة يستحيل فيها الدخيل إلى أصيل. "ومتى كانت تلك الأصول التي يستقى منها النص الحاضر ويستند إليها حية: عقيدة وتاريخا وفلسفة، فإن الآثار الإبداعية التي اتكأت عليها ستقترب من دائرة البقاء إنسانيا، ومتى كانت مفتعلة ابتعدت عن دائرة البقاء والخلود وماتت بعد ولادتها مباشرة. " [1]

لذلك عكست علاقة الشاعر العربي الحديث والمعاصر بالتراث بوصفه مادة معرفية ومرجعية شعرية وعي الشاعر بالتراث، وهو وعي يرى من خلاله الشاعر التراث منجزا إنسانيا، لا كتلة آتية من الماضي السحيق علينا قبولها كاملة والتسليم بقدسيتها والانحباس داخلها. وإذ ينقل الشاعر الحديث والمعاصر تأثير التراث إلى الذات فإن لهذه الأخيرة دور حاسم وفعال في العثور على (تراثها) ضمن التراث، فيكون لها من بعد ذلك أفق واضح تنشأ عنه رموزها الشخصية والخاصة، وتبدع كذلك كيفيات

[1] – حصة عبد الله سعيد البادي ، التناص في الشعر العربي الحديث –البرغوثي نموذجا –، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان،ط1، 2009،ص36.

وطرائق ظهور التراث في القصيدة متخطية مفهوم الماضي بالمعنى السطحي المتضمن كثيرا من دلالات الجهل بالتراث بوصفه مصدرا معرفيا ومنجزا روحيا [2] .

وهكذا تغدو الكتابة الشعرية على حد رأي رولان بارث (Rolan Barthes) ليست سوى إيقاع القراءة نفسها وهي خطابات اخترقت الذات الشعرية اختراقا بعد أن تشبعت بها فسكبت في لحظة أو لحظات على مربعات من الورق، فالكتابة الشعرية هي فتح الذات لكل ما يأتي من الآخرين، للأصوات المتعددة، والنص هو الانتقال من ثقافة الغير إلى متعة الكتابة التي يغدو فيها التناص عملا لذاكرة المبدع الحصيف والمتلقي الكفء[3]. وهذا دليل على أن الأديب المبدع شاعرا كان أو ناثرا لا ينطلق من فراغ في كتابة نصوصه، بل من تراث ضخم يأخذ منه ما يشاء، وما يتناسب مع رؤاه الفنية، ممارسا بذلك عملية بعث لتراث أمته خاصة وتراث الأمم الأخرى والإنسانية عامة، وإحياء للنصوص القديمة كي تظل معطاءة تغترف منها المخيلة التصويرية التي تستند لتراثها ومخزونها الإبداعي والفكري. وقد ساهم " وعي التلقي " في هذه العودة إلى الماضي المتجلية في التراث الإنساني والقومي والوطني، حين أصبح الشعراء المجددون على يقين بأن صلة القراء بقصائدهم تفتر وتضعف وتنقطع كلما أوغلوا في المباشرة والخطابية، لأن المتلقي أصبح يستعذب من الشعر ما يصله عبر ما يدهشه لا الذي يكرر ما تمجه أحاسيسه [4] .

وقد استدعت التناص الديني طبيعة التجربة الوجودية للأمة العربية في هذه المرحلة المأساوية الصعبة التي تعيشها، و" تتضمن لغة الشاعر رؤياها الفكرية والفلسفية التي أراد الشاعر أن يمنحها عمقها وشموليتها، ويشحنها بالدلالات من أجل التأثير في المتلقي نظرا لما تتمتع به اللغة الدينية من حضور وتأثير خاصين في الوعي الجماعي، فضلا عما يمكن أن تقوم به من إثراء للنص الشعري "[5] .

---

[2] –المرجع السابق ،ص 52،53 .

[3] – رولان بارت ، لذة النص، ترجمة فؤاد صفا والحسين سحبان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ،ط2، 2001، ص7–10.

[4] – حصة البادي، التناص في الشعر العربي الحديث ، ص 53 .

[5] – المرجع نفسه ، ص38 .

وعليه فإن المهمة التي يمكن أن يؤديها التناص إنما تنبع من خصوصية اللحظة التي مثلتها الرؤيا الدينية في سياق التجربة الوجودية الإنسانية، ولذلك فالشاعر يتخذ من هذه التجربة بما تحمله من دلالات وتوتر وكثافة أساسا يقيم عليه رؤيته للواقع العربي ."[6] .

ونظرة فاحصة ومتأنية في متون الشعر العربي الحديث والمعاصر تسفر عن حشد من الرموز الدينية المختلفة الانتماء والمصادر، تتفاوت حضورا وتأثيرا في بناء القصيدة العربية، من تلك الرموز الدينية ما ينتظم في إطارها الأنبياء والرسل " الذين وجد فيهم الرواد دلالات متعددة وخصبة للتوظيف الشعري، وبخاصة النبي محمد (ص)، والمسيح عليه السلام، وأيوب الذي تفرد بدلالة الصبر على البلاء والمرض .كما ينتظم في إطارها رموز إنجيلية مثل لعازر رمز الانبعاث الكاذب، ويهوذا الاسخريوطي رمز الخيانة و الغواية، فضلا عن رموز قرآنية وتوراتية كالخضر وقابيل وهابيل، ورموز مقدسة عند بعض الشعوب الوثنية مثل زرادشت وبوذا "[7] .

ويعد القرآن الكريم رافدا مهما للشعر العربي الحديث والمعاصر. إذ لا يكاد يخلو خطاب شعري حداثي من استدعائه وامتصاصه —على نحو من الأنحاء– وأحيانا قد يصل الامتصاص درجة الذوبان بين الخطاب الحاضر والخطاب الغائب، ويصبح التمييز بينهما من الصعوبة بمكان نظرا لكثافة الاستدعاء من ناحية وامتزاجه بنسيج الخطاب الشعري من ناحية أخرى .

وقد نزعت فئة من الشعراء العرب المحدثين والمعاصرين إلى اقتباس صياغات جديدة من القرآن الكريم، وقد دفعتهم إلى ذلك مشكلات التعبير" التي تحمل الشاعر المبدع على التفتيش عن عبارات جديدة ولغة جديدة غير مستهلكة، تستطيع أن تنقل أكبر قدر ممكن من المعاناة والإحساس، و تدفع الشعراء إلى خلق رموز جديدة وبعث أساطير قديمة واقتحام أرض مجهولة واستعارة لغة دينية وآيات قرآنية وتضمين معاني الوحي بلغة تحاكيه وصياغة تؤاخيه، وإن لم تبلغ شأوه"[8] .

---

6 – مفيد نجم، التناص ومفهوم التحويل في شعر محمد عمران ، الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ع 317 –318، السنة 27 ، أيلول وتشرين الأول ، 1997 ، ص 48.

7 – أحمد عرفات الضاوي ، التراث في شعر رواد الشعر الحديث ، مطابع البيان التجارية ، دبي ، ط1 ، 1998 ، ص 145 .

8 – عبد الحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر في الشعر العربي ، مؤسسة نوفل ، بيروت، 1980 ،ص 66 .

ذلك أن للتناص القرآني ثراؤه واتساعه بما يتيح للشاعر من رموز تسعفه في التعبير عما يريد من القضايا التي تشغل باله، دونما حاجة للشرح والتفصيل، لأن النص القرآني مادة راسخة في الذاكرة الجمعية لعامة المسلمين بكل ما يحويه من قصص وعبر، فضلا عما يميزه من اقتصاد لفظي وغنى أسلوبي .

ويلجأ بعض الشعراء عموما، وبخاصة رواد الشعر الصوفي إلى توظيف النصوص الدينية وبخاصة النصوص القرآنية في نتاجاتهم لاعتبارات منها "إن توظيف النصوص الدينية يعد من أنجع الوسائل، وذلك لخاصية جوهرية في هذه النصوص تلتقي مع طبيعة الشعر نفسه، وهي أنها مما ينزع الذهن البشري لحفظه ومداومة تذكره. فلا تكاد ذاكرة الإنسان في كل العصور تحرص على الإمساك بنص إلا إذا كان دينيا " [9] .

ومن يقرأ الشعر الجزائري عامة وشعر مفدي زكريا[10] بخاصة يلحظ بوضوح تأثره بالتراث الديني متمثلا في القرآن الكريم، كما يظهر له جليا حرص الشاعر مفدي زكريا على توظيف تلك النصوص

---

9 – صلاح فضل ، إنتاج الدلالة الأدبية – قراءة في الشعر والقص والمسرح–، هيئة قصور الثقافة ، القاهرة ، 1993 ،ص 41

10 – مفدي زكرياء بن سليمان شاعر جزائري ولد يوم 12 جمادي الأول 1326 هـ الموافق لـ شهر أفريل من عام 1913 " في بني يزقن بجنوب الجزائر، وفيها شرع في قراءة القرآن الذي كان أثره واضح في ثقافته وتكوينه التعليمي فيما بعد ،ثم أرسل ضمن البعثة الميزابية إلى تونس، وتحصل هناك على الشهادة الثانوية من " الخلدونية " ثم التحق بجامع الزيتونة وفيها تخرج.وقد انضم الشاعر إلى صفوف العمل السياسي والوطني منذ أوائل الثلاثينيات فكان مناضلا نشيطا في صفوف جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين وحزب نجمة إفريقيا الشمالية، وحزب الشعب والانتصار للحريات الديمقراطية ثم حزب جبهة التحرير الوطني الجزائري مساهما مساهمة فعالة في النشاط الأدبي والسياسي في كامل المغرب العربي قبل الثورة التحريرية، ودخل السجن خمس مرات ابتداء من سنة 1937 وانتهاء بسنة 1959 حين فر منه ملتحقا بصفوف جبهة التحري الوطني في الخارج . إلى جانب هذا فقد كان مفدي زكرياء أمينا عاما لحزب جبهة الشعب ورئيسا لتحرير صحيفة الشعب الداعية لاستقلال الجزائر في سنة 1937.ينظر عبد العالي رزاقي، نماذج من الشعر الجزائري المعاصر " شعر ما قبل الاستقلال " مجلة آمال. ع 1، ص 93

الدينية، فالنصوص القرآنية مختزلة والمعاني المستوحاة من القرآن كثيرة، والإيحاءات والأفكار متعددة وظاهرة التناص والتضمين منهج عند الشاعر . ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمرين :

-أحدهما هذا التوجه الإرادي والذاتي لدى الشاعر إلى القضية الإسلامية وإيمانه المطلق بأن الحل لمأساته ومأساة الشعوب عامة تكمن في التوجه لهذا الدين .

-وثانيهما إيمانه واعتقاده بأن الاستلهام من القرآن أولا والتراث الديني ثانيا له بالغ الأهمية في الانتقال بشعر الشاعر من مصاف الشعراء المغمورين إلى مدارج الشعراء المتميزين بشعرهم، فالشعوب تواقة لمن يضرب لها على أوتار مآسيها، خاصة إذا علمنا أن هذه الشعوب قد أصبحت لا ترى حلا إلا بالعودة إلى الدين الذي يتكفل بحل قضاياها ومشاكلها. هذا الدين الذي يخاطب قلوبها ومشاعرها وأحاسيسها فتطمئن وتلجأ إليه وتفتح قلبها ولكل من اتصل به بطرف.

والمتفحص لمواضع التناص في شعر مفدي زكريا يجده تناصا متنوعا، فتارة يكون لفظيا باقتباس كلمة أو جملة من آية قرآنية، وتارة يكون معنويا و إيحائيا.وهذه نظرة عما جاء في شعره من ألوان التناص:

أولا : التناص اللفظي :

ويتحقق عبر استدعاء مفردة قرآنية أو عبر استدعاء جملة أو جزء من آية قرآنية:

1/ عن طريق استدعاء مفردة قرآنية:

تضمن شعر مفدي زكريا حشدا كبيرا من المفردات ذات البعد الديني ومصطلحات استخدمها القرآن الكريم، وقد قام الشاعر بامتصاص دلالات تلك المفردات لإعطاء خطابه الشعري قيمة فنية خاصة ذات تأثير عميق في نفس المتلقي بعد منحه إياها رؤاه الخاصة، إذ أنه وبالنظر " لكثرة تعامل الشعراء مع القرآن تلاوة ودراسة وتدبرا، فقد رسبت في ذاكرتهم ألفاظ قرآنية تكررت في القرآن مرارا

فدارت في أشعارهم كثيرا، لارتباطها بحياتهم من حيث التعبير عن مكنوناتهم والإفصاح عن مشاعرهم "[11].

وهذا التوجه لدى هؤلاء الشعراء هو توجه واع ومقصود لم يكن صدفة، خاصة إذا علمنا أنه لا تكاد قصيدة من قصائدهم الكثيرة تخلو من هذا التناص، وفي هذا المجال من التناص يلحظ الدارس ورود كلمات من القرآن الكريم تأتي عرضا دون أن تلقي بظلالها على النص، وكلمات ترد مضيئه لبعض المعاني التي يريد الشاعر الإفصاح والتعبير عنها.

ففي قصيدته " وقال الله " تبدو ظلال سورة القدر واضحة في المتن الشعري الذي يخلد فيه الشاعر مفدي زكريا الثورة الجزائرية المجيدة في ذكراها الثالثة من خلال استعانته بألفاظ ذات دلالات دينية من قبيل (ليلة القدر، ألف شهر، بإذن الله، ملائك، تنزل، روحها، كل أمر).

يقول الشاعر :[12]

دعا التاريخ ليلك فاستجابا (نوفمبر!) هل وفيت لنا النصابا ؟

وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القـــــدر الجوابـــا ؟

تبارك ليلك الميمون نجمـــا وجل جلاله، هتك الحجابا !

زكت وثباتـه عن ألف شهر قضاها الشعب يلتحق السرابا

تجلى ضاحك القسمات، تحكي كواكبه، وقنابله لهابا

بنـــاشئة هنـــاك، أشد وطأ وأقوم منطقا، وأحدّ نابا

مضت كالشهب وانحدرت شظايا تلهب في وجنتها التهابا

ملائك بالفواتك نازلات بإذن الله أرسلها خطابا

---

[11] – محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (1925 –1976) ، ج1 ، المطبعة العربية، غرداية، ط1،1992 ، ص134.

[12] – مفدي زكريا ،اللهب المقدس ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1983 . ص 30 .

وهزت " ثورة التحرير " شعبا فهبّ الشعب ينصب انصبابا

تنزل روحها من كل أمر بأحرار الجزائر قد أهابا

وبّرزت الكواعب، قاصرات فرحن يخضن للموت العبابا

هكذا يستحضر الشاعر –إذا– بعض الألفاظ من سورة القدر ذات الدلالات الدينية العظيمة التي شهدت ميلاد أكبر حدث في تاريخ البشرية متمثلا في نزول القرآن الكريم على سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام. يقول سبحانه وتعالى :

«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِن أَلْفِ شَهْرٍ، تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ»[13]

والشاعر إذ يلجأ إلى استلهام ألفاظ هذه الآية القرآنية، فإنه يستلهم من ليلة القدر عظمتها وجلالها وقداستها ويستعين بها على وصف المواقف العظيمة والأحداث الجسام. وليلة انطلاق أول رصاصة جزائرية في وجه المستعمر الأجنبي هي أعظم تلك المواقف في نظر الشاعر وأجلها كيف لا وقد أذنت تلك الليلة باشتعال نار الثورة الجزائرية التحريرية المجيدة في جميع ربوع الوطن، داعية شعب الجزائر للجهاد ملبيا هذا الأخير نداءها.

وفي هذا المقطع يعقد الشاعر مقابلة طريفة بين ليلة أول نوفمبر وليلة القدر وهي مقابلة تجعل من ليلة أول نوفمبر أشبه بليلة القدر لما فيها من شرف عظيم وخير عميم، فإذا كانت تلك الليلة المباركة – ليلة القدر – هي الليلة التي شهدت ميلاد أول وأعظم دستور في تاريخ البشرية وهو القرآن الكريم الذي نقل العالمين من ذل العبودية إلى شمس الحرية، ومن ظلام الجهل والجاهلية إلى نور العلم والإسلام. فإن ليلة نوفمبر أيضا ليست أقل عظمة وقداسة فقد قلبت بدورها موازين السياسة في العالم وفجرت المعارك في شتى البلدان المستعمرة، وعرفت الشعوب بحقها في الحياة الحرة الكريمة، فكانت إيذانا بعهد جديد لا مكان فيه للظلم والظالمين والبغي والبغاة والجهل والجاهلين.

13 – سورة القدر

وقبل أن نبرح هذا النموذج – الذي أوردنا –إلى غيره من النماذج يحسن بنا أن نلتفت إلى ما فيه من تناصات قرآنية أخرى غير التي أشرنا إليها بخصوص سورة القدر. ففي هذا النموذج طائفة أخرى من الألفاظ القرآنية التي نقول عنها إنها قرآنية لأن " القرآن نزل بلسان عربي مبين أي أن ألفاظه هي كلمات اللغة العربية، غير أن السياق الذي وردت فيه والمعنى الذي أعطي لها من بين معانيها الكثيرة في القرآن الكريم واقتباس الشعراء لها مع الاحتفاظ بهذا السياق، وبكثير من معانيها الأصلية، مع ما عرف عن الشعراء من الارتباط بالقرآن ارتباطا وثيقا هو الذي صبغها بصبغته وطبعها بطابعه، فغدت وكأنها من خصوصيات القرآن " [14].ومن هذه الألفاظ (تبارك، المجيب، السراب، تجلى، كواعبه، ناشئة، أشد وطأ، أقوم، برّزت، الكواعب، قاصرات... "

فقد وردت كلمة تبارك في قوله تعالى:

« **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[15]، في حين وردت لفظة تجلى في قوله تعالى:« **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**» [16]، ووردت كلمة الكواعب في قوله تعالى: «**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وأعنابا وكواعب أَتْرَابًا**» [17].

أما مفردات ناشئة، أشد وطأ، أقوم " فنجدها مجتمعة في قولة تعالى :

« **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً، وَأَقْوَمُ قِيلًا**»[18].

وكلمة برّزت في قوله تعالى :

«**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى**»[19] .

ووردت كلمة قاصرات في قوله:

---

14 – محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (1925 –1976) ، ج 1، ص 134 .

15 – سورة الملك، آ 1

16 – سورة الليل ،آ 1،2

17 – سورة النبأ ،آ31 ،32، 33

18 – سورة المزمل، آ6

19 – سورة النازعات، آ 36

« فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ»[20].

ووردت كلمة السراب في قوله تعالى :

«وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »[21].

وفي هذه القصيدة الطويلة مفردات وألفاظ قرآنية أخرى لم يتضمنها هذا النموذج الذي هو بين أيدينا، والقارئ للقصيدة كلها يجدها مبثوثة في ثناياها من قبيل (مدين، كن، جهاد، زلزل، ناظره، أذّن، كبّر، الخلد، جنات عدن، تفور، سجد)[22]

ويمكن أن يلاحظ المتلقي أن هذه الألفاظ التي نجدها مبثوثة في ثنايا هذه القصيدة تتراوح في دلالتها بين معاني الثورة والقوة والتحدي والصمود من ناحية، وبين معاني النعيم والجحيم من ناحية أخرى . فمن الألفاظ الدالة على أهوال الثورة وعظمتها وجلالها وقدسيتها : تبارك، جل جلاله، زكت، ألف شهر، ناشئة، أشد وطأ، أقوم، جهاد، زلزل، تفور ...، وهي ألفاظ يمكن أن ندرجها في خانة الألفاظ القرآنية التي وظفها الشعراء في ميادين الإصلاح الاجتماعي والسياسي "وقد لاحظنا أن أغلب المتأثرين بالقرآن في كتاباتهم هم شعراء الحركة الإصلاحية وشعراء الثورة التحريرية الجزائرية وما قبلها"[23]

والشاعر إذ يعمد إلى توظيف هذا النوع من الألفاظ ذات الوهج الثوري، فإنه يروم استغلال ما فيها من طاقات ودلالات تدفع إلى النضال والجهاد والتضحية والفداء، والمساعدة على تبني أو اتخاذ أي سبيل يعين على الحصول على نتائج حسنة، وقطف ثمار يانعة " حتى وإن كان الدافع في الاستعمال القرآني يكون ويتم برفق ولين، وهو في بعض الأبيات يكون مصحوبا بعنف: عنف المعركة التي يخوضها ذووا الغيرة ضد الفساد والتخلف "[24] .

2/عن طريق استدعاء جملة أو جزء من آية قرآنية :

---

[20] – سورة الرحمان، آ 56

[21] – سورة النبأ ،آ 20

[22] – مفدي زكريا، اللهب المقدس، قصيدة قال الله، ص 32 ،33 ،34

[23] – محمد ناصر بو حجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج1، ص 134 .

[24] –المرجع السابق ، ص 137

ونعني به ذلك التناص الذي يرد في شكل اقتباس حرفي لجملة أو عبارة كاملة قد تكون آية أو تركيبا يستدعي آية أو عدة آيات قرآنية. ولعل هذا التعلق بالنص القرآني والانجذاب نحوه هو ما حذا بشاعر كمفدي زكريا إلى اعتبار شعره وكأنه تنزيل و قرآن[25]، نلمح ذلك في قوله :

رسالة الشعراء في الدنيا مقدسة لولا النبوءة كان الشعر قرآنا [26]

لذلك وجدنا مفدي زكريا من أكثر الشعراء الجزائريين اقتباسا من القرآن الكريم لغة وتصويرا وموسيقى، إذ لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من استدعاء للفظ قرآني أو استلهام لمعاني قرآنية أو إشارة لما ورد فيه من قصص، وسنرى فيما سيأتي كيف تعامل مفدي زكريا مع الجملة القرآنية.

يقول الشاعر :

سيذكـرون إذا الليـل الرهيب سجـى وجلجل الخطب أني في الدجى فلق

حسبي وحسب أناسي أن غدوت لهم عودا يعطـرهم ذكـــري واحترق [27]

ويستحضر الدارس فور قراءته لصدر البيت الأول قوله تعالى : «**وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**»[28]. ولا اختلاف في التركيبين سوى ما أقدم عليه مفدي زكريا من تقديم وتأخير حين قدم إذا الظرفية عن الفاعل (الليل) وإضافة النعت " الرهيب " إليه، ومع ذلك لم يستطع الشاعر أن يخفي مصدر إلهامه، فبدا الاقتباس واضحا وظاهرا لا يخفى على الآخذ بشيء من آيات القرآن وأسرار أسلوبه.

وإن كنا نسلم بأن لا عيب في الاقتباس والتضمين وتكرار ألفاظ سبق الشاعر إليها، فإننا نرى أنه من المهم أن يجيد المبدع استعمال تلك الألفاظ والجمل التي أتى على تمثيلها وأن يتصرف فيها بما يكفل الأداء الجيد والتعبير الصحيح، الذي يبتعد عن التكلف والغموض وطمس معالم شخصيته وإفناء تجربته الشعرية، وهو ما حذا بالشاعر إلى الأخذ بمنوال هذه الآية الكريمة، فقد وجد فيها من الدقة في الاستعمال وصفا وتعبيرا ما أملى عليه استحضارها.

---

[25] – محمد ناصر بوحجام، ج1 ،ص 122.

[26] – مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 290 .

[27] – المصدر نفسه،ص 29 .

[28] – سورة الضحى ، آ 2 .

ذلك أن " القارئ أو المستمع للغة القرآن يتمكن من تمثل معانيه واستحضار المشهد أو الشيء الموصوف استحضارا كاملا، إذ القرآن يختار اللفظة المعبرة عن الموقف الخاص اختيارا دقيقا. لهذا نجده مثلا يستعمل المترادفات استعمالا صحيحا كتفريقه بين لفظتي المطر والغيث والجوع والسغب ..."[29] .

ومفدي زكريا يحذو حذو أبي فراس الحمداني – هاهنا – إذ يعبر عن عظيم مكانته ورفعة شأنه، كيف لا وشعره وقود يذكي فتيل الثورة الجزائرية في أنحاء الجزائر وعباراته وألفاظه سما ينفث به في قلوب الأعداء، لذلك فإن أبناء شعبه حتما يذكرونه دوما حتى وهو في زنزانته المظلمة، ولا يغفلون عن ترديد شعره الحماسي وعباراته الثورية التي تشعل في نفوسهم روح الانتقام من المستعمر البغيض، وحسب الشاعر وأقصى ما يتمنى أن لا ينساه أبناء شعبه وهو ما تهيأ له وتحقق له، فعبر عنه في هذين البيتين وبقية أبيات القصيدة التي اقتطفنا منها هذا النموذج .

ومن قصيدته "وقال الله" التي يبارك فيها الشاعر الثورة الجزائرية ويخلدها في ذكراها الثالثة مفتخرا فيها معتزا بالفاتح من نوفمبر شهر النضال ورمز الكفاح، نقتطف هذه الأبيات التي يقول فيها مفدي زكريا:

بناشئة هناك، أشد وطأ وأقوم منطقا وأحد نابا [30] .

والنص القرآني الموظف في هذا النموذج هو قوله تعالى :

« إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا»[31] .

وقد أشارت كتب التفسير إلى أن "ناشئة الليل: القيام بعد النوم و(الناشئة) مصدر نشأ إذا قام ونهض كالعاقبة والعافية، ويصح أن تكون صفة لمحذوف، أي النفس الناشئة بالليل أي القائمة فيه

---

[29] – محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري، ج 1، ص 131 .

[30] – مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 131 .

[31] – سورة المزمل، آ 6 .

أشد وطأ ...إلخ قوله(وطأ) تمييز أي من جهة المواطأة، أي الموافقة فيها (قوله موافقة السمع للقلب)، أي أن هذا الوقت توافق الحواس القلب وكل ما وقع في الحواس وعاه القلب لخلو القلب من الشواغل".[32]

في هذا التناص الجملي يعمد الشاعر إلى اتباع أسلوب الاستبدال، ومن خلاله يسعى الشاعر إلى قلب الدلالات الدينية الواردة في القرآن الكريم واستبدالها بقضايا معاصرة أو وقائع وأحداث جديدة يحاول من خلالها مباغتة المتلقي ومفاجئته بخطاب لم يتعود على وروده على ذهنه بهذه الطريقة، فربط بين ما يقوم به العابد الذي يقضي ليله قائما يصلي ويتلو القرآن ويذكر الله خشية وتضرعا ملتمسا نعيم الله ورضاه، وبين ليلة أول نوفمبر التي شهدت ميلاد أقدس وأعظم ثورة في تاريخ البشرية . هذا اليوم المبارك الأغر الذي شبهه الشاعر بليلة القدر حين قال :

زكت وثباته عن ألف شهر قضاها الشعب، يلتحق السرابا[33]

هكذا يربط الشاعر بين قداسة ليل العابد وقيام ليلة القدر، وبين ما جرى في ليلة الفاتح من نوفمبر الذي شهد ميلاد الثورة الجزائرية في ليله الأول وهو إذ يربط بين قداسة الليلتين إنما يفعل ذلك ليقرن بين الجهاد وقيام الليل والعبادة، فكلا الفعلين جليل وعظيم ودليل تقرب إلى المولى عز وجل، وكلاهما فيه من السمو والقداسة ما يرتفع بقدر صاحبه ومنزلته عند ربه

ثانيا/التناص المعنوي:

قد يتجاوز التناص في أحايين كثيرة حدود الاقتباس الحرفي لكلمة أو عبارة قرآنية لاستلهام المعنى الذي يحمله النص القرآني أو يشير إليه دون التلفظ به حرفيا، أو ليشمل القصة القرآنية من حيث سرد الحدث أو الاكتفاء بالتحليق في أجوائها .والأمثلة كثيرة في هذا النطاق نستهلها بما ورد على لسان الشاعر مفدي زكريا، محلقا في أجواء قصة سيدنا موسى عليه السلام حين يصف حال أحمد زبانا الشهيد، وهو يتقدم ويهم بالصعود إلى المقصلة لينفد فيه حكم الإعدام لا يبالي بما ينتظره، لا يخاف مصيره، بل كله فرح وسرور لأن المجد قد عانقه والشرف قد احتواه، فهو إذ يشد الحبال ليرتقي إلي مقصلة

---

[32] – أحمد الصاوي المالكي، حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، مج 4، ص 258.

[33] – مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 30 .

العدو إنما يصعد إلى سماء الرفعة والسؤدد مثلما ارتفع قدر سيدنا موسى حين حظي بتكريم الله له .يقول الشاعر :

حالما كالكليم كلمه المجـ ـد فشد الحبال يبغي الصعودا[34] .

وقد ارتبطت حياة سيدنا موسى عليه السلام بحوادث كثيرة كانت لها انعكاسات على الحياة وتأثيرات في النفوس، لأن في شخصيته سمات جعلته يتميز عن غيره وكان لها أثر على كل من اطلع على سيرته و حياته، كما أن في قصته دروسا وعظات يمكن الاستفادة منها كإصلاح الأمم بعد فسادها، بيان عاقبة الكفر والظلم، صمود العقيدة، انتصار الحق على الباطل، الدعوة إلى الكفاح، تقويض الطغيان، نجاة المؤمنين، التحلي بالقول اللين، الإيمان عن طريق العقل، دحض معتقدات المصريين القدماء، تنزيه الله وتقديره حق قدره [35].

ولهذا كله وجدنا الشعراء يلجأون إلى هذا النبع ينهلون منه، وإلى شخصية موسى عليه السلام يستلهمون منها ما يسعفهم في التعبير عن أفكارهم والإفصاح عن مشاعرهم، ومفدي زكريا واحد من هؤلاء الشعراء الذين لجأوا إلى هذا المعين يعبون منه، فوجدنا كثيرا من أحداث قصة سيدنا موسى ماثلة في أشعاره تلميحا وإفصاحا .

يقول الشاعر:

ولعل من (شلعلع) ذو بيان فأنطق فوق (جرجرة)الجعابا

وشبت من ذرى (وهران) نار رآها (برج مدين) فاستجابا

وقال الله : كن يا شعب حربا على من ظل لا يرعى جنابا

وقال الشعب: كن يا رب عونا على من بات لا يخشى عقابا !

فكـــان وكـــان من شعب ورب قرار أحدث العجب العجابا !![36]

---

[34] – المرجع السابق، ص 10 .

[35] – عفيف عبد الفتاح طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ط 9، دار العلم للملايين، بيروت، 1981 ،ص 250 .

[36] – مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 31،32 .

وواضح في هذا المثال أن هناك تداخلا نصيا بينما ما ورد في البيتين الأول والثاني وقوله تعالى على لسان سيدنا موسى:

«وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى »[37] .

فمفدي زكريا إذ يحلق في هذه الأجواء القصصية القرآنية الرحبة فإن تقديسه لثورة شعبه وكفاحه يقف وراء ذلك، ويرى بأن المحن والابتلاءات التي أصيب بها وأصيبت بها بلاده قد أعقبها خير كثير، وأن التضحية التي بذلها مع رفاقه المجاهدين في سبيل نصرة وطنه لم تذهب هباء، إذ جنى وجنت منها الجزائر الخير الكثير تماما كما العنت والبلاء الذي أصاب موسى، وأدى إلى الالتجاء إلى النار التي أبصرها، وكان وراءها الهدى والخير الكثير.

هكذا – إذا – كانت نار موسى رمزا للأمل الذي يعقبه الخير العميم بعد طول يأس وطول عنت وتعب، فالنار التي قصدها موسى والتجأ إليها مستأنسا بها للتدفئة والحصول على ما يسكت جوعه، قد أعقبها فضل كبير ونعمة عظيمة، وهي تكريم موسى بالرسالة لكي ينقذ بني إسرائيل من فرعون وملئه [38]

قال تعالى :

«فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى »[39].

إن هذا الاهتداء بعد طول البحث وبعد التعب الشديد والعنت، يتجسد في ذلك التجاوب التي حظيت به الثورة الجزائرية المباركة، وفيما عرفته من شمولية في الكفاح، وفيما اتسمت به معاركها من ضراوة واستماتة في وجه الطغاة لتحقيق النصر وإحراز آمال الشعب في الحرية والخلاص والحياة الكريمة، وهو ما عبر عنه الشاعر مفدي زكريا في أبياته السابقة .

---

37 – سورة طه ،آ 9،10

38 – محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج 2، ص 278 .

39 – سورة طه ،آ 11، 12، 13 .

وزيادة على الرمز الذي تتوفر عليه الصورة، فهي توحي بمجموعة من الصور المتلاحقة التي تنساب إلى ذهن المتلقي انسيابا، بقدر ما يفقه من حياة موسى عليه السلام ويعي من حقيقة ثورة الجزائر المجيدة، وهي تتم عامها الثالث وبدأت نتائجها تظهر للملأ، فبمجرد استحضار الآية الكريمة تتجسد في أذهاننا معاني الاهتداء بعد الضلال، والأمن بعد الخوف، والدفء بعد القرّ، والنور بعد الظلام وكأنها من نعم وثمار تلك الثورة .

وفي موضع آخر يستحضر الشاعر قصة سيدنا موسى مع فرعون و سحرته، فيقول بمناسبة تخليده للثورة الجزائرية في عامها الرابع، وللفاتح من نوفمبر رمز الجهاد والبطولة:

سحرت روائعها المدائن عندما ألقى عصاه بها الكليم فروعا[40]

وأجواء القصة ذاتها يستحضرها الشاعر في موضع آخر من ديوانه اللهب المقدس، وذلك في معرض حديثه عن الدور الكبير الذي قام به (جمال عبد الناصر) في الرد على العدوان الثلاثي على قناة السويس، مذكرا ببراعته ودهائه في إبطال كل ماحدث قبله، والذي بسببه تمكن الأجانب من استغلال القناة :

ولا(ابن صهيون) يسعى في قداستها بالرجس، لا رجس فيها..انها حرم

ألقـــى عصاه بها (موسى) مروعـــة تلتقم[41] راحت لما بث (إسماعيل *)

وفور قراءة هذه النماذج يتداعى إلى أذهاننا قوله تعالى :

«**فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ** »[42].

---

[40] – مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 63 .

* –إسماعيل الخديوي حاكم مصر الذي وزع أسهم استغلال القنال على الأجانب في الشركة، ينظر : اللهب المقدس، ص 300

[41] – مفدي زكريا ،اللهب المقدس ،ص 300

[42] – سورة الشعرء، آ32 .

وقوله أيضا في موضع آخر من نفس السورة :

«فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ »[43] .

وقد عرفنا سابقا من خلال قصة سيدنا و سيرته كيف كانت عصاه ولا تزال رمزا للإعجاز والتحدي و التغلب على الصعوبات وقهرها والإتيان بالخوارقو بما يذهل أمامه بني البشر، كيف لا وقد روع بها موسى فرعون وسحرته وأعجزهم وأخرسهم حين تلقفت ما يأفكون وأبطلت سحرهم وكيدهم، وبها أنجى الله موسى وقومه من فرعون وشره حين ضرب بها البحر وضرب بها الجبل فانفجرت منه اثنتا عشر عينا، كما كانت ولاتزال هذه العصا رمزا لإحباط المؤامرات والدسائس.

والشاعر إذ يستحضر هذه الآيات، وإذ يستحضر عصا موسى على وجه الخصوص فإنه يبدو لنا في هذا المقام مقارنا ومشبها، ذلك أن المتأمل في ما أورده الشاعر يجد أن مفدي زكريا بحذقه ومهارته يعقد مقارنة رائعة بين عصا سيدنا موسى المعجزة والخارقة للعادة، وصنييع (جمال عبد الناصر) الذي أبهر به المتتبعين من رجال السياسة حين قلب كل الموازين، وبين عمل السحرة الذين قالوا : "إنّا بعزة فرعون لغالبون" وتصرفات (إسماعيل الخديوي) الذي وزع أسهم استغلال القنال على الأجانب – بسخاء– في الشركة، ثم التقام عصا موسى لعمل السحرة وإبطال مفعوله وعمل (جمال عبد الناصر) في إلغاء كل اتفاق بين الشركاء وكل ما كان سائر المفعول قبل تاريخ الإلغاء [44] . وفي ذلك كله تصوير بليغ يعبر عن عظيم ما أقدم على فعله جمال عبد الناصر، ومن شدة إعجاب الشاعر بصنيعه رآه ضربا من الخيال أو هو أقرب للإعجاز منه إلى الواقع .

والتناص من هذا القبيل يعرف في النقد الحديث "بالصورة الإشارية " [45]وذلك حين يعمد الشاعر من خلاله إلى المقابلة بين موقفين أو حدثين، فيستعير صورة من أثر آخر ليدمجها في خطابه الجديد، فيكون لذلك دور في تنشيط الذاكرة حين يدعوها الشاعر لاستحضار تلك الصورة أو تلك المواقف السابقة عن طريق الإشارة إليها والتلميح لها، تماما كما فعل مفدي زكريا حين ذكر العبارة القرآنية

---

[43] – سورة الشعراء ،آ 45 .

[44] –محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج2، ص 276 .

[45] – جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر، 2003 ،ص 191 .

" ألقى عصاه " فقد جعل ذاكرة القارئ تبحث في أعماقها عن المشهد القرآني الذي يصور قصة سيدنا موسى وعصاه مع فرعون وسحرته لتستعيده، ولعل ذلك واحد من جماليات التناص الذي يحاول من خلاله الشاعر تنشيط ذاكرة القارئ.

وواضح مما سبق أن الشاعر من خلاله استدعائه الكثيف لأحداث من سيرة وقصة سيدنا موسى أنه من المتعلقين بشخصيته عليه السلام، وهو ما لفت انتباه أحد النقاد والدارسين لشعر مفدي زكريا فعلّل ذلك بقوله :" ... ومن جهة ثانية قد يعود هذا الاختيار إلى طبيعة مزاج مفدي زكريا نفسه، فطبيعته الثورية المؤمنة باستخدام القوة وسيلة لتغيير الأوضاع وقلبها، ورفض أنصاف الحلول والحصول على الحقوق بالطرق الدبلوماسية، وتمرسه على النضال والمواجهة في صفوف حزب الشعب منذ الثلاثينات ... هي التي دفعته إلى الإعجـــاب بالمواقف القوية التي تطيح بالجبروت والطغيان، وقد تمثل له ذلك كله في قصـــة سيدنا موسى مع فرعون الطاغية " [46] .

فكانت العصا والنار ... وغيرها من الرموز والإشارات التي تحيل إليها قصة سيدنا موسى من بين ما استعان به مفدي زكريا على قهر الطغاة والطاغين، إذ من خلالها يحاول الشاعر زرع الأمل في النفوس، والنيل من الأعداء نفسيا بالإطاحة بكبريائهم أمام المستضعفين والمغلوب على أمرهم من الشعوب التي تهابهم وتتصورهم وحوشا كاسرة أو حواجز وعقبات لا يمكن تخطيها، أو صخورا لا يمكن تحطيمها.تلك المميزات التي طبعت شخصية سيدنا موسى هي التي ألهمت مفدي زكريا وأسعفته على الإفصاح عن أفكاره وحالته النفسية، فدعا إلى التحرك للقضاء على الاستعمار، خاصة أن الظروف التي عايشها الشاعر كانت قاسية، وأبرز ما يميزها الاضطهاد والتسلط والتشويه والمسخ باستعمال وسائل الترهيب والإغراء، ذلك أن الشعر في جوهره هو إدلاء بفكرة أو تنفيس عن هم أو إفصاح عن شعور أو تلمس لآفاق المستقبل [47] .

ونواصل مع استلهام مفدي زكريا لأجواء القصص القرآني، ونلتقي مع نموذج آخر يصف فيه (أحمد زبانا) المجاهد الشهيد التي يتقدم نحو المقصلة بخطوات ثابتة، وفخر واعتزاز بالشهادة وثقة بالنفس

---

[46] – محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج 2، ص 284 .

[47] – المرجع نفسه، ص 286 .

تحمل كل معاني النيل من معنويات الجلاد الغاصب، وتسخر منه، ويصعد المقصلة لينفذ فيه حكم الإعدام، فيراه الشاعر كالمسيح من حيث الوداعة وسمو الروح والرحمة :

قـام يختـال كالمسيـح وئيـدا يتهادى نشوان يتلـو النشيـدا

باسم الثغر كالملائك أو كالطـ فل يستقبل الصبـاح الجديـدا

شامخـا أنفـه جلالا وتيهـا رافعا رأسـه ينـاجي الخلـودا

وامتطى مذبـح البطولـة معـ راجا ووافى السماء يرجو المزيدا

اشنقوني فلست أخشى حبـالا واصلبوني فلست أخشى حديدا

و اقض يا موت فيّ ما أنت قاض أنا راض إن عاش شعبي سعيدا[48]

ثم يقول الشاعر مضمنا قوله الرد على الطغاة الذين زعموا قتله :[49]

زعموا قتلَه...وما صلبـوه، ليس في الخالدين، عيسى الوحيدا!

لفَّه جبرئيلُ تحت جناحيـ ـه إلى المنتهـى، رضياً شهيـدا

وسرى في فم الزمان "زَبَانا" مثـلاً، في فم الزمـان شـرودا

وهنا نجد التناص قائما مع قوله تعالى :

« **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** »[50].

وظف الشاعر –إذن– قصة المسيح وصلبه في هذا النموذج، وقد وردت في الآية القرآنية السالفة الذكر، ولعل ما يستشف من هذا التداخل النصي الواقع على مستوى البنية الدلالية هو تجاوز

---

48 – مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 9،10

49 – المصدر نفسه، ص 11 .

50 – سورة النساء، آ 157،158 .

مفدي زكريا للمعنى الحرفي التاريخي لهذه القصة، إذ امتص معاني الآية القرآنية واستلهمها للرفع من شأن هذا المناضل الفذ ومنزلته، وليتخذ من ذلك أداة لتثبيت قلوب المجاهدين وحثهم وتشجيعهم على مواصلة النضال والجهاد، والوقوف في وجه الجلادين والرد عليهم بالثبات في الصفوف وعدم التراجع إلى الوراء، لأن هذا ما يسعى إليه المستعمر من جراء إقدامه على تنفيذ حكم الإعدام في حق أحمد زبانا، وذلك حتى يكون عبرة لغيره من المجاهدين والمناضلين، ولكن هيهات أن يتأت له ذلك، ففي الجزائر مليون ونصف مليون "زبانا "كلهم مستعدون لتقديم أنفسهم فداء لهذا الوطن، وهي الحقيقة التي يود الشاعر من المستعمر الغاشم أن يفهمها ويعيها .

هكذا نجد الشاعر لا يفني النص الغائب، بل يحوره ليكتنز نصه الحاضر بدلالات جديدة معاصرة مستوحاة من الواقع الذي ولد فيه وعايشه الشاعر، ففي الصورة التي يرسمها الشاعر لشهيد الواجب الوطني المقدس أحمد زبانا نقف على رموز ومعان عميقة يشير إليها الشاعر، من اطمئنان وسعادة داخلية، وثقة بالله وبالمصير والمنقلب الحسن الذي ينتظر من أدى واجبه، وهناك الثبات على المبادئ والمضايقات والتهديدات، إلى جانب ذلك كله الإشارة إلى وحشية المستعمر وقساوته وجبروته وطغيانه خاصة عندما تعييه الحيلة في إقناع أصحاب المبادئ والمؤمنين برسالاتهم في الحياة بالرجوع عن مبادئهم، وفي الإشارة إلى عدم التمكن من قتل "أحمد زبانا" المناضل الفذ تلميح إلى خلوده في النفوس بتضحياته وأعماله الجليلة [51].

وعى الشاعر جيدا، وهو الذي تابع الثورة الجزائرية خطوة بخطوة ورصد أطوارها ووصف معاركها، وأشاد بأبطالها أن هذه الثورة في حاجة ماسة إلى من يذكي فتيلها ويشعل لهيبها، خاصة وأنها في بعض الفترات كانت تمر بمراحل حرجة وصعبة، فكان لابد من الرفع من معنويات المجاهدين والمناضلين خوفا من فشلها.

إن شخصية عيسى عليه السلام بما تحمله من معاني الرحمة والشفقة وما صاحبها من معجزات لفتت انتباه الشاعر مفدي زكريا الذي وظفها في أكثر من موضع في شعره فاسحا لها مجالا يستلهمها فيه، مستغلا ما في شخصية سيدنا عيسى عليه السلام من الصفات و المواقف الدالة على التضحية والفداء في سبيل المبدأ، وما اتصل بها من معاني القوة الخارقة المعجزة والخلود، وما انسجم منها

---

51 –محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج2، ص 291 .

بحالات الجزائريين النفسية، وظروفهم الاجتماعية، وما ارتبط منها بمواقفه السياسة وكفاح شعبه المستميت وتصديه لمناورات المستعمر ومؤامراته، وكذا ما توافق مع أفكاره ورؤاه وتعريفه بالأسلوب الذي يراه مناسبا للخروج من بوتقة الاستعمار، فوظف "ظاهرة رفع الله لعيسى عليه السلام إليه وعدم الاعتراف بقتل بني إسرائيل له، لبيان خلود الشهداء والمجاهدين بأعمالهم وتضحياتهم رغم مفارقتهم للدنيا، فالله رفعهم إليه لذكرهم الحسن كما رفع عيسى إليه من قبل " [52] .

وما يتصل بشخصية عيسى عليه السلام قصة مريم عليها السلام وهي المرأة التي أصبحت بما اتسمت به من أخلاق فاضلة وايمان بالله رمزا للعفة والطهارة، وجعل الله تعالى منها ومن ابنها عيسى معجزة وهي التي لم تتزوج ليبين للناس دلائل قدرته وواسع فضله، وقد أغدق سبحانه وتعالى عليها بفضل تقواها وعفتها النعم الكثيرة والعطايا التي لا حصر لها فكان ينعم عليها بالفاكهة الشهية، والرطب الجني .وقد استغل مفدي زكريا هذه السيرة العطرة لمريم العذراء، ليثري تجربته الشعرية، فراح يقتبس من آيات القرآن الكريم ما يدل على هذه السيرة وما يعبر عن معجزة مريم، متخذا من تلك الآيات القرآنية معينا يعبّ منه وسندا يتكأ عليه في التعبير عن أفكاره والإفصاح عن تجربته الشعورية، محاولا إعادة تشكيل الواقع الذي يعيشه ويحياه، وكذا إضاءة الدلالات التي يريد توصيلها، أو التي تتطلبها التجربة الشعرية بالاعتماد طبعا على تقنية التناص القائم بين النصوص المستدعاة والمتن الشعري .

لذلك وجدنا شعره يعج بالشخصيات الإسلامية والأحداث التي طبعت حياة هذه الشخصيات، محاولة منه لربط تجارب هؤلاء في موقعهم الزمني مع التجارب المعاصرة لأنه يرى " أن عودة الشاعر إلى تراثه تستند إلى حقيقة موضوعية هامة مفادها من لايعرف القديم ليس بوسعه أن يأتي بجديد ." [53]

وانطلاقا مما أوردنا نحاول فيما سيأتي أن نجلي التناص القائم بين ما ورد في شعر مفدي زكريا من استدعاء لشخصية مريم العذراء والآيات القرآنية الدالة على ذلك .

يقول الشاعر :

52– المرجع نفسه، ص 296 .

53 – حسن طلب، أمل دنقل حياته وأدبه ومأساته، نقلا عن متقدم الجابري، جماليات التناص في شعر أمل، بحث مقدم لنيل دكتوراه العلوم في النقد العربي المعاصر،جامعة الحاج لخضر،باتنة،الجزائر،2008. (مخطوط). ص 23 .

وهزت مريم العذرآ نخيـــلا فأسقطت الفلوذج و الرضـــابا

عراجن، كالمجرة مشرقـات عسالجها، انسكبن بها انسكابا

يدغدغ تحتها الغنام نايــا فينطق من فم الغنـــم الربابـــا

يدلي في الغدير الحلو ساقا و بالكفين، يغتـــرف الشرابـــا

و يستلقي بحافته، يناجي إله العرش، يســـــأله متــابا[54] .

وفور قراءة البيت الأول يستحضر الدارس النص القرآني المستدعى ويتمثل في قوله تعالى :

« **فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**»[55] .

إن هذه الأبيات التي تتناص في بيتها الأول مع هذه الآية القرآنية مقتطفة من قصيدة طويلة للشاعر نظمها في السجن، وفيها يخلد الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية المباركة، والشاعر إذ يحيي هذه الذكرى الثالثة لثورة التحرير المظفرة، فإنه يضمن كلامه تعداد ما أنعم به سبحانه وتعالى على صحرائنا من نعم وكنوز وخيرات كثيرة هي خيرات كل الجزائريين .

ولننظر كيف قابل الشاعر بين هذا التعبير وبين ما ورد في الآيات القرآنية لسورة مريم، فمثلما سهّل سبحانه وتعالى على مريم الحصول على قوتها فأشار عليها فقط بهز جذع النخلة لتتساقط عليها الثمرات الجنية، نرى الشاعر يشير إلى سبيل الاستفادة من خيرات بلاده ونعمها، إذ يرى أنه يكفي أهلها القيام فقط بعمل بسيط لتتدفق عليهم تلك الخيرات والنعم، خاصة إذا عدنا قليلا إلى الأبيات التي تسبق قول الشاعر وفيها يصف الصحراء الجزائرية، ويفتخر بعادات وأخلاق أهلها وبالخيرات الكثيرة التي حباها الله إياها.

تكمن أهمية هذه الشخصية المستدعاة في هذا النموذج من خلال موقعها الديني والأخلاقي في وجدان الناس، ومقدرتها على استيعاب التجربة المعاصرة للشاعر، وتتقاطع معها بما يتوافق مع طبيعة

---

[54] – مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 37 .

[55] – سورة مريم، آ 24 ،25 .

الأفكار التي يريد التعبير عنها، والتي قد تكون بضمنها تلك التي أتينا على إضاءتها إضافة إلى أنه بالإمكان " أن يفهم من هذا الاستعمال (مريم العذراء) أنه إشارة إلى الفتاة الصحراوية التي نشأت على العفة والطهارة، طهارة البيئة الصحراوية نفسها "[56] فضلا عن الإشادة بخصالها و مناقبها و دورها الذي لا ينكر في عملية التحرير و البناء.

وخلاصة القول أن استلهام مفدي زكريا لألفاظ القرآن الكريم و تراكيبه و للقصص القرآني يفسر تعاملا واعيا وصادقا مع هذا النص المقدس، ذلك أنه حاول الاستفادة منه في المواقف التي تعترضه، وقد حاول الربط بين قضايا القرآن الكريم والحالات النفسية والشعورية التي تنتابه، وكذا الظروف العصيبة التي تمر بها بلاده، وقد استغل ما في قصصه من عبر وعضات واستعان بها على زرع الأمل في القلوب وبعث الثقة في النفوس وعدم الاكتراث بقوة العدو مستنيرا في ذلك بنظرات القرآن وإشاراته في هذا المجال مركزا على جانب الاعتبار والتأسّي في المواقف التي كان يعرضها، والنظرات التي كان يستلهمها، وكذا المعاني التي كان يلجأ إليها.

---

56 – محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري، ج2، ص 295 .

المراجع و المصادر:

*القرآن الكريم برواية ورش

- Al-koraan el-karim bi rivayati varc*

1-أحمد الصاوي المالكي، حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين، مج 4، دار الفكر.دط، دت.

- Ahmed al-Savi al-Maliki, haşiyatu al-'allama al-Savi'ala tafsire al-calalayine, mc4, Dar al-fikr, dt, dt.

2- أحمد عرفات الضاوي، التراث في شعر رواد الشعر الحديث ، مطابع البيان التجارية ، دبي ، ط1 ، 1998.

- Ahmad Arafat al-zavi, al-Turat fî Şi'r Ruvad al-Şi'r al-Hadîs, Matabi ' al-bayan al-Tûjariya, DobayT1, 1998.

3-حصة عبد الله سعيد البادي ، التناص في الشعر العربي الحديث –البرغوثي نموذجا –، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع ، عمان، ط1، 2009.

- Hissa Abdallah Sa'îd al-Bâdî, al-Tanâs fî al-Şi'r al-Arabi al-Hadîs –al-Bargûsî namûzacan-, Dâr Kunûz al-Ma'rifah li an-Naşr va al-Tavzee', Ammân 2009.

4 - جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر، 2003.

- Camal mibarki, al-Tanâs va camaliyatuhu fi al-Şi'r al-cazaûri al-mu'sir, isdarate rabitatu el-ibda' el-sakafiya, al-cazair, 2003.

5-رولان بارت ، لذة النص، ترجمة فؤاد صفا والحسين سحبان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 2001 .

- Roland Barth, Ladatu al-nas, Tarjamatu Fuad Safa va al-Hossaîn Sahban, Dâr Tubegal li an-Naşr, al- Dâr al- baydae, T2, 2001 .

6-صلاح فضل ، إنتاج الدلالة الأدبية – قراءة في الشعر والقص والمسرح–، هيئة قصور الثقافة ، القاهرة ، 1993 .

• Salah fazl, intaj al-dalala al-adabiya, Kiraatun fi al-Şi'r va al-kisai va al-masrahi, hayatu kusur al- Ma'rifaal-Kahira, 1993.

7-عبد الحميد جيدة ، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي ، مؤسسة نوفل ، بيروت، 1980.

• Abdelhamid jida, al- itûjahat el-jadida fi al-Şi'r al-Arabi, muasasatû navfal, bayrut, 1980.

8-عبد العالي رزاقي ، نماذج من الشعر الجزائري المعاصر " شعر ما قبل الاستقلال " مجلة آمال . ع 1 .

• Abdel'ali, Razâki namazicon mina al-Şi'r al-cazaûri al- mu'sir, Macalatu Amal, '1

9- عفيف عبد الفتاح طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ط 9، دار العلم للملايين، بيروت، 1981 .

• 'Afif 'abdelfataah Tabara, ma'a al-anbiyyai fi al-koraan el-karim, T9, dar el-'ilmi lilmalayine, bayrut, 1981.

10-متقدم الجابري، جماليات التناص في شعر أمل دنقل، بحث مقدم لنيل دكتوراه العلوم في النقد العربي المعاصر، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2008. (مخطوط).

• Mutakadem al-cabiri, camaliyate, al-Tanâs fi Şi'r Amale donkale, Risalatu Doctorah, cami'atu Batna, al-cazair, 2008 (Maktute).

11- محمد ناصر بوحجام ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (1925 -1976) ، ج1 ، المطبعة العربية، غرداية، ط1، 1992.

• Mohamed naser bu hacam, ataru al-koraan el-karim fi al-Şi'r al-cazaûri al- Hadîs (1925-1976), C1, al-Matba'a al-Arabia, gardaya, T1, 1992.

12-محمد ناصر بوحجام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج 2 ، المطبعة العربية، غرداية، ط2، 1992 .

• Mohamed naser bu hacam, ataru al-koraan el-karim fi al-Şi'r al-cazaûri al- Hadîs (1925-1976), C1, al-Matba'a al-Arabia, gardaya, T2, 1992.

13-مفدي زكريا، اللهب المقدس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

• Müfdî Zekeriyyâ, al-lahabu al-mukadasu, al-Şarikatu al-vataniya li an-Naşr va al-Tavzee', al-cazair, 1983.

14–مفيد نجم، التناص ومفهوم التحويل في شعر محمد عمران، الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 317 –318، السنة 27، أيلول وتشرين الأول ، 1997 .

• Mufid Najem, al-Tanâs va mafhum al-Tahvûl fî Şi'r Mohamed Amran al-mavkif el-adabî, etuhad el-kutâb el-Arab, dîmaşk, Adad317-318, al-sana27, Aylul va Tîşrîn al-aval, 1997.